برهان الحق في الخلق

(2)

د.عز الدين علي السيد

كلية اللغة العربية

لله في الكون آياتٌ وبرهان   مَنْ أخطَأوا سِرَّها في حكمهم مانوا !

انظر ذَوَاتِ الجهنى والشِّرْبُ مستمد   عن الطعومِ ..بها راوٍ وغَصانُ

حلوٌ ومرّ وفي الأزهار مختلفٌ   ريحاً ولوناً.. فنسرينٌ وريحان

وانظر إناثا من الأشجار حانيةً   لها من الجنس في البستان ذكرانُ

لواقح الريح رُسْلُ الوصل بينهما   إن لم تَلاَقه لبعد الدار أغصان

لله في كونه المنظور برهانُ   له من الخلق بالإتقان إذعان

فاسألْ بِهِ النهْرَ عذْبَ الماء يُمْتعُنا   واسألْ بِهِ البحْرَ في جنبيه ركبانُ

ملحاً أجَاجاً.. يلاقي النهر.. بينهما   -لُطْفاً بنا- برْزخ يعّدوه عدوان

لا يبغيان.. وكل في وظيفته   مسخرٌ .. بصنوف الخير م لآ ن

فاعجبْ له تحْملُ الأثقالَ صفحتُهُ   ما مسَّهُ الوهنُ منها وهى أطنان

في جوفه عا لمٌ حيّ كعالمنا   فيه العجائب منها العقلُ حيران!

يموتُ منا غريقُ الماء مختنقا   فكيف تحيا الماء حيتان؟

فإنْ عدَتهْ إلى أرجائنا اختنقَتْ   من الحياة لها بالأرض حرمان!

وكيف تحْمى بأصدافٍ لآلئُهُ   وكيف يولد بين الرمل مرجان؟

وكيف مرَّتْ دهور وهْو ممتلئ   ما غاض في الرمل أو أعياه نقصان؟

والمدُّ والجزْرُ ينتابان شاطئه   بالعدل ما منهما بالخلف عصيان!

وكم أقيمتْ على أبعاده مُدُنٌ   وكم توَلَّتْ حضاراتٌ وعمران!

واسألْ به السُّحْبَ مَنْ في الجو أنشأها   وكيف عنه اعتَلَتْ فالأفق ملآن

مثل الحوامل فوق الأرض جارية   يسوقها قادِر.. بالخلق رحمان!

ليَفصِلَ الحمْلُ في أرضٍ لنا جُرُزٍ   ناءتْ بجَدْبٍ عراها فهي كثبانُ

تهتز أضلاعها من مُزْنه طرَبًا   إذْ جاس في العمق منها وهو هتان

فتصبح الأرضُ أبهى صورةٍ خلبتْ   ما مسَّها غير كفِّ الغيث فنان!

لله في كونه المنظور برهانُ   وحكمةٌ لو صغَت للكون آذان!

فاسألْ به الأرضَ واسمعْ ما تُرَنِّمُهُ   فما لها عنك إن أخلصتَ كتمان

هذى جبالٌ على الأرجاء شامخةٌ   للأرض منها على الأرجاء صوّانُ

تُرْسِ الجوانبَ أنْ تهتزّ مائدةً   فتأخذَ الكون ويلاتٌ وأحزان

فيها عجيبٌ من الألوان.. ذي جُدَدٌ   بيضٌ .. وحُمْرٌ .. وتلك السود غربان

وكم بها نحت الجبارُ منزله   كأنه خالِدٌ والموتُ غفلانُ!

وكم بها استعصمتْ بين الذرى أممٌ   منها وحوشٌ .. وفُتّاكٌ .. وغزلانُ

لم تَعْدم الرزقَ.. تلتذُّ الحياةَ كما   يلتذُّها في الرياض الزهرُ نشوانُ!

وفي السهول فيافٍ غيْر منْبته   فيها من الهول أسدانٌ وغيلان

وفي السهول مراعٍ ملؤُها نغَم   حلوٌ تردده للسمع قطعان

وفي السهولِ طيور كلُّها عجب   شتى المشارب أعداءٌ وأحزان

منها مُغَنٍّ بديعُ الوشى يفْتننا   نجواه للإلْف أسجاعٌ وألحان

وكاسِرٌ خاطفٌ تُخشَى بوادرُه   وصائدٌ ماهرٌ للصيد يقظان

هذا ذبابٌ بعدْوَى الداء يزعجنا   عادٍ علينا بيوت الرعب طنانُ

وتلك نحْلٌ لنا من بطنها عسلٌ   من الرحيق المصفّى وهي ذِبان!

تَسْعى لكسب الجهني في سُبْلها ذللا   لها العروس العلَى دورٌ وأكنان

لو لم تُسخَّرْ بوحي الله مبدعها   لهَالَنَا كائدٌ للشر نهمان!

سبحان من جنّس الأجناسَ مقتدراً   في كل جنس بها للقلب إيقان

للّه في كونهِ المنظور برهانُ   لو ناله مِنْ ذوي الألْباب إمعان

هذى عيونٌ بعذب الماء دافقة   وذي عيون بها نورٌ ونيرانُ

كم فجْرتْ ضربة في الأرض مِن ذهبٍ   مثل الجنين له في الخلق إبَّانُ

هاجتْ به حسداً بين الورى أممٌ   فيها لمن ناله حقْد وأضغان

هذا يفيضُ على الأرجاء في كرم   يرْقى به شاكر للّه نعْمانُ

وذا يفيض سخيَّ البذل في نقم   يشقى بها كافرٌ بالرزق خوان

لم يدْر ذاك ولا هذا مصادرةُ   وكيف خُصت به في الأرض أوطان

وكم يعيش من الأعوام منطلقا   أم سوف يبقى له في البذل إدمان

وباطنُ الأرض يَطْوى كلّ من سبقوا   كأنهم بعد طول العمر ما كانوا

وباطنُ الأرض يحويِ ألفَ معجبةٍ   كأنه عالم غشاه نسيان

من العقاقير والأفلاذ قد حُجِبَتْ   كما به لطغاةِ الكفر بركان
فالله يملي فإن حقت مشيئتهُ   لا يدفع القدَرَ الغلابَ طغيان
لله في كونه المنظور برهان   آياته فيه عن ما غَابَ إعلانُ
هذا الفضاء الذي بالعين نشهده   مِن حولنا هو للأسرار ميدان
فلا فضاءَ كما تَقْضي سذاجتُنا   بل عالمٌ سفّ تستجليه أذهانُ
فيه البلايينُ مِنْ صوتٍ ومن صورٍ   ومِنْ خلايا لها روحٌ وجثمان
تدورُ أسرَعَ مما قَد يصورُهُ   لك الخيالُ لهما زخم و إرنان
قد جسَّمتها لنا بالعلم أجهزة   ما كان قبْلُ لها في العقل إمكان
والعلْمُ آية علام الغيوب لهُ   حدَّانِ كالسيف: إيمان وكفران
شالت به للنجوم الغرِّ أجنحة   لها من الإنس في الآفاق عُقبان
أرْسَتْ على البدْرِ والمريخ تذرعهُ   عَلّ الحياة به تُزهَى وتزدانُ
أمنيَّةٌ كان قبل اليوم يسألها   فرعونُ ما اسطاعها بالأمس هامان
وربُّ موسى عن الأبصار محتجب   فينشْدَه الصرح مِنْ فرعون بهتان
اليوم بالعلم للآفاق قد صعدوا   لكنهم عن صراط الحق عميانُ!
للّه في كونه المنظور برهانُ   وأنت فوق سطور الكون عنوان
فانظر حياتَكَ (مِكروباً) تَعَلّقَهُ   ماء مَهينٌ يراعى منه خجلانُ
كيف استقرَ سجيناً في المضيق على   زاد يُقاف وهذا السجنُ دَجْيان
يسعى به الغيْبُ من ماء إلى عَلَق   فمضغةٍ وجهُها بالسحب عيمان
تغدو عظاما.. فتُكسَى اللحَم.. تخرجها   يَدُ المهيمن مخلوقا له شان
يشاهد النورَ إنساناً بطلعته   للقلب حبٌّ وإيثارٌ وتحنانُ!
مركباً بدقيق السرِّ.. ركّبه   من العناصر ذات الدفع مَنّانُ
دون الحرارة.. فوْق البرد.. مُحتمَلٌ   على الفصول.. وقد ضمتْك أحضانُ
حتى انتعشْتَ به عامين في حَدَبٍ   وقد بَدَا لك في الفكين أسنانُ
لتترُكَ الثدْيَ لِلّذاتِ في أُكُلٍ   منها عن الثدْي للعينين سلوان
فانقلْ خُطاكَ معي نسعَى على عجلٍ   تُطْوَى به من كتاب العمر أزمانُ
كم فاجأ المرْءَ بين الأهل مِن مرضٍ   مضى به الطيّ يُهذِي وهو أسيان
لم يُجْدِهِ العلم محتالاً ليشْفيه   وقد أُعِدَّتْ ليفْش الصبرَ أكفانُ

هذا بجرعة ماء زال قاتِلُه   وعاد في الأرض يجرِي وهو عجلان

وفارهُ الجسم عاق الِموتُ خطوتَهُ   فراح.. ما ردَّهُ أهلٌ وخلان!

تقول: قد كان مِنْ تَوِّ ي يحدثني!   قد كان! قد كان! والمفجوع ولهان!

تلك المنايا التي تخشى نوازلها   بَدْءُ الحياة وإن نالتك أشجان!

مَنْ مات قامَتْ وما نَدْرِي قيامَتُه   فالْقبرُ في جوْفِهِ نار وبستان

يطُلُّ فيه على مثواك نافذةٌ   مِنْ دونها مالكٌ يرنُو ورضوان

فاعملْ لمثواك في ظل التقى ورعاً   يُسعِدُكَ في ظله رَوْحٌ وريحان

وامْشِ الهوينَ بفكر للورى يقظٍ   فكل ما في الورى للفِكر بَيان

وإصْبَعٌ منك فيها ألْفُ واعظةٍ   إذا انْجَلَى بالهدى عن قلبك الرانُ!

واهتفْ إذا راعك الإعجازُ من عجبٍ   سبحانَ مَنْ صنعهُ في الخلق فرقانٌ !

واسألْهُ للملتَقى مِن عصمةٍ قبسًا   فالنفسُ أمارة والشر فتان

شهدْتُ أنك يا ألله ديانُ   والعجْزُ عن كُنهِ ما أبدَعْتَ برهان!